مجلـــة البحوث البيئية والطاقة
جـامعة المنوفية قطاع خدمة المجتمع وتنمية البيئة

الأدب وجائحة كوفيد١٩ : كيف تجسدت الأوبئة في الأعمال الأدبية ؟

إعـــداد
أ.د/ سعيد شوقي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

المجلد ١٠ العدد (١٦) يناير ٢٠٢١م

الأدب وجائحة كوفيد١٩ : كيف تجسدت الأوبئة في الأعمال الأدبية ؟

أ.د سعيد شوقي

كلية الآداب – جامعة المنوفية

توطئة :

ثمة علاقة مائزة بين الأدب والأوبئة ؛ متصلة في بُعد ومنفصلة في آخر ؛ أما الاتصال ففي تحويل الأوبئة من واقعها المرجعي إلى أدب ، تضحى به كيانا آخر ، لا يشاكل مرجعه ، وأما الانفصال فيتم في النظر إلى الأوبئة في واقعها المرجعي قبل أن تضحى كيانا أدبيا .

ويكون الأدب مصدرا لمعرفة الوباء في العصور السحيقة التي ربما لم تتوفر مستندات ووثائق بشأنها تصف الوباء أو تؤرخ له ، أما في العصور الحديثة التي فيها كل شيء مؤرخ بمستندات ووثائق ؛ فإن نقل الوباء في الأدب لا يكون كوثيقة مرجعية ، وإنما يكون الهدف من قراءته معرفة أحوال الناس والعباد تجاه هذا الوباء واختبار معاناتهم وشئونهم اليومية وانكسار وجدانهم ومعيشتهم معه ومحاولتهم في التغلب والصمود أمامه وعليه والتحديات التي فعلوها نفسيا ووجدانيا تجاهه بشكل وجودي وفلسفي ، يعبر عن إرادة البشر التي لا بد لها أن تستمر وتحيا .

من هنا كانت قراءة الأوبئة في الأدب غير مملة كما قراءتها في الوثائق والمستندات الطبية والتاريخية ؛ لأنها تركز على الإنسان في مواجهة قدره ، وهذه تيمة محببة في النفس الإنسانية ؛ ليتابع الإنسان تاريخ أسلافه في المواجهة ، ويرصد تواليات في الزمن الحديث .

أنت في أدب الأوبئة إذا تقرأ الإنسان لا الوباء ، الوباء هنا ككارثة طبيعية بكل تجلياتها والإنسان هنا الثبات نفسه في وجه كل الكوارث .

إنها نفس الروح الإنسانية التي تظهر ضد الأعاصير والرياح والزلازل والبراكين والتسونامي والفيضانات والطوفان والحيوانات الأسطورية العملاقة والنيازك والبروق.

وإن كان للوباء ثمة خاصة ؛ فهو خفي مبهم غير ظاهر ، ومن هنا تكمن خطورته وغموضه ومن هنا يظهر الرهاب الكبير منه .

كذلك ربما كانت الكوارث الطبيعية محددة غير سريعة الانتشار مثله ، إذ إنه فضلا عن خفائه سريع الانتشار والفتك .

كذلك قد يشعر المرء أن الكوارث بمعزل عنه ، في بيئات معينه ، لكن الوباء يمكن أن ينفذ إليه من أهون الأسباب دون أن يدري بسهولة ويسر .

وقد يكون عند المرء تصور عن الكوارث الطبيعية ، وكيفية درأها ومواجهتها ؛ لكن معظم الأوبئة لا يظهر دفاع لها إلا بعد أن تأتي على أعداد مهولة من البشر تقارب كما الإنفلونزا الأسبانية خمسين مليونا .

وليس كل تفاعل بين الأدب وأي مرض من أدب الأوبئة ؛ فلأدب الوباء صفات – كما الموسوعة الطبية – حتى يسم الأدب بها وهي أنه : يظهر بصورة مفاجأة ويكون أكثر شراسة ، ويكون سريع الانتشار ، ويتفشى بين أعداد كبيرة من المجتمع وعادة ما يكون مرضا جديدا أو مرضا مستوطنا خرج عن السيطرة الطبية ، وليست له حدود جغرافية .

وعلى ذلك فالأمراض المستوطنة ليست وباء ، والاستيطان يعني : أن يكون المرض مستمر الحدوث ، ومحصورا على فئة معينة ، ولكن ليس بأعداد كبيرة ، ولا يحتاج إلى تدخل خارجي ويحدث داخل نطاق جغرافي محدد . ومثاله : البلهارسيا ، فهي مرض مستمر ومستوطن في صعيد مصر.

كذلك فإن الأمراض مفرطة التوطن ليست من الوباء ، والإفراط في التوطن يعني : أن يكون المرض مستمر الحدوث ، ومحصورا على فئة معينة ، ويصيب أعداداً كبيرة في أوقات معينة من السنة ، قد تستدعي التدخل الخارجي ، ولكنه يبقي داخل نطاق جغرافي محدد . ومثاله : مرض الملاريا الذي يسببه البعوض ، وهو مرض مستمر ، محصور في السودان ، وتكثر الإصابة به في فصل الخريف .

وبصفة الوبائية يتحدد مصير أدب الأوبئة كما أشرنا . والأوبئة التي ظهرت عبر التاريخ كثيرة ، أشهرها ما يلي :

١- وباء الطاعون الذي اجتاح أوروبا في القرون الوسطى وأدى إلى مقتل ثلث سكانها .

٢- وباء الإنفلونزا الأسبانية عام ١٩١٨م ، التي أدت إلى مقتل الكثيرين من سكان العالم .

٣- وباء السارس الذي انتشر عالميا وأودى بحياة الكثيرين في عام ٢٠٠٣م .

٤- وباء كرونا الذي انتشر عالميا ويودي بحياة الكثيرين الآن .

وللأدب في تعالقه مع الوباء صفات خاصة :

١- أن الأدب الذي يكتب عن الأوبئة غالبا له صفة العالمية تماما كصفة الوباء الذي يكتب عنه .

٢- أن الأدب الذي يكتب عن الوباء غالبا يمتلئ بالفواجع والآلام تماما كصفة الوباء الذي يكتب عنه .

٣- أن أدب الأوبئة غالبا ما يكون له صفة الانتشار السريع والشهرة تماما كما صفة الوباء الذي يكتب عنه .

٤- أن كتاب الأوبئة يتفرقون بين المشاهير وغيرهم من الشداة تماما كصفة الوباء الذي يحصد كل الناس ؛ مشاهيرهم وعوامهم .

٥- أن طبيعة هذه الآداب إنسانية من هنا جاءت عالميتها تماما كطبيعة الوباء الذي تكتب عنه .

٦- أن طبيعة هذه الآداب تاريخية ومعاصرة تماما مثل طبيعة الوباء الذي تكتب عنه .

والحق أن الوباء في تعالقه مع الأدب ، وفي مقاربته بالنقد الأدبي يفسح الطريق أمامنا لمداخلته عبر أشهر محاور المداخلة في هذا التعالق ، وهي :

أولا - المقاربة عبر آليات الصحفي والأدبي .

الأدب بصفة عامة غير الصحافة ؛ الصحافة تنقل الحدث في لحظته أو بعد وقوعه ببرهة قصيرة ، نقلا سريعا طازجا ، أما الأدب فيحتاج إلى تعتق التجربة وتأملها ؛ لذا فإن الأحداث الكبرى تظهر في الصحافة إبداعا سريعا ، لا يحيط بجوهر كنهها ، أما في الأدب

فتحتاج إلى وقت طويل ؛ لذا فإن أدب الأوبئة الحق لن يظهر سريعا في زمن الوباء وإنما يحتاج إلى فترة تأمل ودربة . ليس معنى ذلك أنه لا توجد أعمال أدبية ظهرت في غمرة الوباء فقصيدة كوليرا لنازك الملائكة ظهرت في قلب الوباء ، وكذلك ثمة أديب سوري اسمه خالد خليفة يخرج عملا روائيا اسمه : لم يصل عليهم أحد ، نهاية مايو الماضي ؛ أي في ذروة الكورونا .

وينتصر الأديب المصري صنع الله إبراهيم إلى هذا الرأي ، فيقول : صنوف الآداب والفنون تفشل إذا حاولت الاقتراب من التجارب الحقيقية ، التي غيرت شكل العالم كله قبل اكتمال التجربة . ويضيف : أعتقد من خلال قراءتي للمشهد وتفاصيله أنه يجب على المبدع بشكل عام الانتظار حتى يستطيع هيكلة التجربة ومشاهدة الصورة من قريب ، فالكتابة عن أزمة وباء كورونا الآن ستكون مجرد تدوينات وأفكار مشتتة غير مكتملة لا ترقى لعظمة الحدث .

ثانيا – المقاربة عبر التأرجح بين المرجعي والأدبي .

في مقاربتنا لأدب الأوبئة نجد أننا نمتلك أوبئة قبل دخولها الأدب وأوبئة بعد دخولها الأدب ؛ في الأولى يستقصي العلم مفرداتها بصرامة ويرصد تحولاتها بدقة ، في الأخرى لا يهم الأدب الرصد ولا التحول بقدر ما يهمه مفردات المغزى والخيال فيها ومنها .

لذا لا تحاول ترصد وباء من مفردات الأدب إلا بقدر توظيفه في بناء مخياله الأدبي ، وإذا أردت الترصد الحق ؛ فلتذهب إلى مستنداته وسجلاته العلمية المعبرة عن فترته .

ليس ثمة مساءلة إلى الأدب إذا عن علمية وواقعية نقله للوباء ، وإنما المساءلة كل المساءلة عن كيفية نقل جوهره وكنهه وأثره حياتيا ومجتمعيا وفلسفيا وحضاريا ووجوديا في حياة البلاد والعباد .

وللأوبئة في الواقع المرجعي الحياتي أهمية في دراستها من قبل الأديب قبل أن يشرع في الكتابة ؛ حتى يكون صادقا في وصف الوباء وأعراضه وتحولاته بين شخوصه ؛ بالقدر الذي يفيد متخيله الأدبي ، ولا شك في هذا ، فلا يمكن أن يكتب أديب عن وباء لم يلم به ويعرف كنهه وحكايته .

ثالثا – المقاربة عبر التبادل بين الصدق الفني والصدق الواقعي .

والأديب في معرفة كنه الوباء وحكايته يتعرض إلى قطبي الصدق الفني والصدق الواقعي ، ففي الصدق الفني ربما يعبر الأديب عن الوباء خير تعبير دون أن يعانيه ويمر به تجربة ومرضا وشفاء ، وفي الصدق الواقعي ربما يفعل ما فعله في الصدق الفني بعد مروره بكامل تجربته على المستوى الشخصي أو العائلي .

وعندما يتحد الصدق الواقعي بالصدق الفني في الإبداع تكون التجربة أعظم ؛ لأن التعبير هنا ممن يكابد ويعاني أو كابد وعانى ، لكن ليس شرطا أن من مر بالتجربة يبدع أعظم ممن لم يمر بها ، فالصدق الفني يمكن أن يكون كافيا لمن يمتلك الموهبة والمهارة .

رابعا_– المقاربة عبر الأدب التنبؤي .

في هذه المقاربة يمكن دراسة الآداب التي تنبأت بالأوبئة ، وكيف تم لها ذلك ، من ذلك مثلا يمكن دراسة رواية عيون الظلام للكاتب الأمريكي دين كونتيز ١٩٨١م ، الذي تنبّأ بفيروس شبيه بكورونا ؛ ويمكن كذلك التوقف بشيء من الحيرة والاندهاش أمام التوافق العجيب الذي جعل أحداثها تجري في مدينة ووهان الصينية باسم ووهان ٤٠٠ ، وهي كما يعرف الجميع بؤرة الفيروس COVID– 19 .

يمكن دراسة في الأدب التنبؤي أيضا رواية الطاعون القرمزي للكاتب جاك لوندون التي نشرت عام ١٩١٢م ، وهي رواية خيالية تروي أحداث ما بعد نهاية العالم .

كذلك يمكن دراسة رواية العمى ١٩٩٥م للكاتب ساراماغو ، وهي عن وباء يفقد الناس بصرهم . ورواية نيميسيس للكاتب الأمريكي فيليب روث التي تدور حول تفشي وباء شلل الأطفال عام ١٩٤٤.

إضافة إلى رواية الموقف عام ١٩٩٨م للروائي ستيفن كينغ التي تحدثت عن فيروس مختلف تماما عن سابقيه ، معد لحروب بيولوجية تقضي على العالم . وكذلك رواية "عام الطوفان" التي صدرت عام ٢٠٠٩م ، التي تتناول الكاتبة الكندية مارغريت آتوود فيها ، عالم ما بعد الوباء ، تصل فيه البشرية إلى حافة الانقراض . وتدور أحداث العمل بعد ٢٥

عاما ، من فناء غالبية سكان الأرض ، بفعل " طوفان دون ماء " تمثل في وباء خبيث " انتقل عبر الهواء ، وكأنه يطير بجناحين ، ليجتاح المدن كما الحريق المستعر .

يأخذنا ذلك أيضا إلى رواية قطع أو فراق التي أصدرتها الكاتبة "لينغ ما" عام ٢٠١٨م ، والتي وصفتها "ما" نفسها، بأنها عمل يتناول "أوضاع العالم في ما بعد كارثة هائلة دمرته تماما تقريبا .

وفي عام ٢٠١٤م أصدرت الكاتبة الكندية إيميلي سانت جون مانديل رواية المحطة الحادية عشرة ، التي تدور أحداثها قبل تفشي أنفلونزا سريعة الانتشار بشكل غير مألوف في العالم ، وكذلك خلال فترة تفشيها ، وبعد انتهاء هذه الأزمة أيضا. وقد انطلقت العدوى – بحسب الرواية – من جمهورية جورجيا " إذ انفجرت هناك وكأنها قنبلة نيوترونية فوق سطح الأرض " لتزهق أرواح ٩٩ في المئة من سكان العالم (م).

وهكذا بدا الأدب التنبؤي وكأنه إرهاص بما سيحدث ؛ لذا وجب التنبه لمثل هذه الآداب

خامسا– المقاربة عبر آليات الأدب المقارن :

بالمقاربة يتم مقارنة الآداب التي عالجت الأوبئة بين الشعوب ؛ مختلفة القومية ، شريطة اختلاف اللغة ، فمثلا يمكن مقارنة قصيدة الكوليرا للشاعرة العراقية نازك الملائكة وقصيدة معسكر الكوليرا للشاعر الإنجليزي روديارد كيبلنج ، ولكاتب هذه السطور دراسة في ذلك . وكذلك يمكن مقارنة رواية إيبولا ٧٦ للروائي السوداني أمير تاج السر بمثيلها غير العربي .

وبمقاربة الأدب المقارن تتضح المعالجات بين الشعوب لفهم الجوهر الإنساني في تحدياته أمام جائحة الوباء وفورتها ، وآلياته المتنوعة في فعل ذلك .

سادسا – المقاربة عبر آليات النقد البيئي :

وله تسمية أخرى النقد التبيؤي ، ويعنى هذا النقد بعلاقة الأدب بالظروف المادية والحياتية وما تجلبه الفاعليات البشرية من دمار لهذه الظروف .

ويسعى النقد التنبيؤي إلى ضمان استمرار حياة الإنسان ، وإلى تأكيد حق الإنسان في ديمومة الطبيعة ، بكل حيواناتها ونباتاتها لصالحة .

وكما يبدو فهو نقد يهتم بعلاقة الأدب بالبيئة ، وهذا من صميم وكالة البيئة مما يحتاج إلى عقد مؤتمر آخر باسم الأدب والبيئة عبر آليات النقد التبيؤي .

وهذا التوجه النقدي يتناول بصورة عامة هدفا مشتركا هو أننا قد وصلنا إلى مرحلة انهيار البيئة ؛ مرحلة إدراك أن عواقب أعمال الإنسان تدمر أنظمة دعم الحياة الأساسية على كوكب الأرض ، والسؤال الأهم هو كيف يمكننا بصفتنا دارسين للأدب أن نسهم في الحفاظ على البيئة ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب أن نفهم أولا أن مشاكل البيئة الحالية هي من صنع أيدينا أي أننا نواجه مشكلة عالمية ليس بسبب آلية عمل أنظمة البيئة بل بسبب طرق تعاطينا مع هذه الأنظمة .

إن التعامل مع المشكلة يتطلب فهم أثر الإنسان في الطبيعة بشكل واضح وفهم طرق تعاملنا مع أنظمة البيئة وتوظيف هذا الفهم من أجل الإصلاح . إن مهمة دارسي الأدب ليست في إجراء هذا الإصلاح بل المساعدة في تحقيق الفم (م).

ويرتبط بالنقد البيئوي أيضا بمعرفة الأوبئة وبيئاتها التي انتشرت فيها .

ويمثل الطاعون الطرح الأكبر في الأدب ، وذلك لقدم انتشاره في أمريكا ولندن وإيطاليا واليونان قديما والهند ومصر ، ولعل الأدبيات الآتية تعبر عن ذلك :

١- حضرت الأوبئة في الأعمال الأدبية بفروعها المختلفة منذ العصر اليوناني، التي رسخت العلاقة السببية بين الطاعون والخطيئة في بعض الأعمال ، مثل الإلياذة ، حين يأسر أجاممنون بنت قسيس للإله أبولو، فيتفشى الطاعون في جيش اليونان .

٢- رواية دفتر أحوال عام الطاعون أو صحيفة يوم الطاعون ، للكاتب الإنجليزي دانييل ديفو عام ١٧٢٢م ، ووثق من خلالها الطاعون الذي اجتاح لندن عام ١٦٦٥م . فيصف فيها مشاهد الخوف والذعر التي انتابت الجميع إثر تفشي الطاعون .

٣- رواية الطاعون للكاتب ألبير كامو ، ووثق فيها الطاعون الذي اجتاح مدينة وهران الجزائرية في ١٩٤٧م .

٤- كتاب ديكاميرون لجيوفاني بوكاسيو ، وهو عبارة سلسلة من القصص المكتوبة في أعقاب الطاعون الأسود الذي ضرب إيطاليا .

٥- حكايات كانتربري ، وهي مجموعة من القصص القصيرة للكاتب جيفري تشوسر، تدور أحداثها على خلفية وباء الطاعون الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر، وعرف باسم الموت الأسود .

٦- من أبرز الأعمال التي تناولت الطاعون أيضا ، روايتا الخطيبان وتاريخ عمود العار ، للروائي الإيطالي أليساندرو مانزوني (١٧٨٥-١٨٧٣) (م).

وفي الأدب العربي :

١- الحرافيش لنجيب محفوظ ؛ حدثت عن انتشار الطاعون في مصر في ذلك الوقت ، ومحاولة بطل الرواية عاشور الناجي الهرب بأسرته من الوباء ، ثم العودة بعد انتهاء الطاعون إلى الحارة ، التي خلت من سكانها ، في محاولة لتأسيس مجتمع يقوم على العدل ، لكن مع الوقت تعود الأوبئة الاجتماعية كما كانت .

٢- لدكتور طه حسين في دعاء الكروان ، ومن هنا اشتهرت العبارة الشائعة من الفيلم المأخوذ عن الرواية ، التي أجاب بها الخال على آمنة بطلة الرواية، وهي تسأله عن شقيقتها هنادي : هنادي راحت في الوبا .

٣- رواية اليوم السادس ، للكاتبة الفرنسية من أصل مصري ، أندريه شديد ، التي قدمها المخرج يوسف شاهين ، في فيلم بالعنوان نفسه ، وقامت ببطولته الفنانة الراحلة داليدا ، وقدمت فيه دور امرأة تحاول أن تخبئ حفيدها الذي أصابه الوباء ، حتى لا يأخذوه إلى الحجر الصحي ويموت هناك (م).

وتمثل الكوليرا الطرح الذي يليه فيما يلي :

١- الحب في زمن الكوليرا للكاتب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز ، ونُشرت الرواية لأول مرة باللغة الإسبانية في عام ١٩٨٥م ، والوباء في الرواية لم يكن حقيقياً ، بل مجرد إشاعة اختلقها الحبيب السبعيني ، الذي قرر أن يمضي بقية حياته مع حبيبته بعد أن جمعهما القدر مرة أخرى على ظهر سفينة ، فلم يجد حيلة لتنفيذ قراره

سوى الاعلان عن انتشار وباء الكوليرا في السفينة لتخلو من ركابها ، ويبقى هو مع حبيبته ، رافعين العلم الأصفر للدلالة على استمرار الوباء في تلك السفينة العاشقة (م).

٢- قصيدة معسكر الكوليرا للشاعر الإنجليزي روديارد كيبلنج .

وفي العربية :

١- قصيدة «كوليرا»، للشاعرة العراقية نازك الملائكة، التي كتبتها في عام ١٩٤٧، لتعبّر فيها عن الوباء الذي نشر الموت في مصر وقتها .

وتمثل الإنفلونزا أيضا طرحا إضافيا :

١- رواية حصان شاحب ، صدرت عام ١٩٣٩م ، للكاتبة الأمريكية كاثرين آن بورتر، ترصد فيها وباء الأنفلونزا الإسبانية (م).

وتمثل إيبولا طرحا آخر :

١- رواية إيبولا ٧٦ للروائي السوداني أمير تاج السر التي أثار الفيروس فيها الرعب في قصة" أكثر واقعية ، بأمكنة حقيقية ، وتاريخ حقيقي (م).

ويمثل وباء غير محدد الاسم طرحا آخر :

١- رواية العمى لخوزيه ساراماجو ١٩٩٥م .

٢- في عام ١٩١١م كتب الروائيّ الألماني توماس مان رائعته الروائية الموت في فينيسيا أو الموت في البندقية ، وفقًا للترجمات العربية . لقد كان توماس مان واقعًا تحت تأثير فلسفة فردريك نيتشه وشوبنهاور عندما نظر إلى جمالية الوباء وفككه فلسفيا (م).

خاتمة :

ما من شك في أن ثمة أعمالا أدبية في طور التحضير الآن، بشأن ما نواجهه في الوقت الحاضر، ما يحدو بنا للتساؤل عن الطريقة التي سيصوّر بها الكُتّاب في الأعوام المقبلة الوباء الحالي ، وكيف سيوثقون ما شهدته الفترة الراهنة من تنامٍ كبير لروح التضامن بين أفراد المجتمع وبعضهم بعضا في مختلف دول العالم ، وكيف سيرصدون البطولات التي يبديها الآن عدد لا حصر له ممن يعيشون بيننا (م) .